الصراع بين الإسلام والوثنية

صراع من أجل تقديس المبادىء دون الاشخاص

للدكتور محمد البهي

الوثنية عبادة المحسوس المشخص ، وعبادته تنطوي على تعدد المعبود أيضاً ، لأن المشخص بحكم تشخصه محلى بحدده زمانه ومكانه. والأمكنة مختلفة والأزمنة متتابعة ، ولهذا كانت آلهة الوثنيين متعددة . والجماعات الوثنية وإن اتفقت في عبادة ما في الطبيعة من أنهر وجبال وكواكب وأفلاك وغير ذلك إلا أن معبوداتها مع ذلك كانت مختلفة . لأن ما في طبيعة إقليم لجماعة يختلف بالشخص عما في طبيعة جماعة أخرى .

هاجم الإسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لا يعرف تشخصه ولا تحد حقيقته ، لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص وجزئيات محددة . صنع الإسلام ذلك لأنه أراد للانسان هدفا أسمى مما في عالمه . أراد أن يكون خضوعه وأن تكون طاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء . والمتغير الفاني ليس إلا أشخاص هذا العالم الذي نعيش فيه . أراد له هذا لأن خضوع الانسان للمتغير الذي يعتوره الفناء معناه التقلب في الانقياد على نحو يجعل الإنسان مضطربا في التوجيه في حياته ، ومضطربا في الغاية ، وأخيراً مضطربا في دوافع العمل والسلوك . فضلاً عن أن تشخص المعبود يؤدي إلى تقليل قداسته أو التضييق من تعظيمه . وذلك بتوالي انكشافه وتعرفه . وإذا قلت القداسة وضاق نطاق التعظيم ضعفت الطاعة أيضاً أو تلاشت ، وعندئذ لا تصلح القيادة أو لا توجد . ولذا كان غير المحدد هو وحده محل تعظيم الانسان ومحل خشيته ، وبالتالي إذا عبد نال من التقديس والطاعة بقدر حقائه وعدم الوقوف عليه من الانسان

الوثنية وتعدد المعبود إذاً متلازمان . والوثنية وتشخيص المعبود أيضاً متلازمان ، وقد تفضي الوثنية مع ذلك ، أي مع تعدد المعبود وتشخصه ، إلى عبادة إله وراء ما اتخذته من آلهة في الأرض أو السماء غير مشخص وغير محدد وقد تلقبه برب الأرباب أو بخالق السموات والأرض . وهي إن أفضت إلى هذا عدت شركا لأنها أشركت مع الإله الذي يجب أن يعبد وحده ، وهو الإله الطبيعي ، آلهة أخرى تعد في ملكوته وتصرفاته ؛ أشركت مع الإله الذي لا يحد ولا تدرك حقيقته آلهة أخرى محددة مشخصة .

فمهاجمة الإسلام للوثنية ومهاجمته للشرك ، ومهاجمته لأهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وأشركوا مع الإله الطبيعي إلهين آخرين مشخصين هما عيسى ومريم ؛ مهاجمته هذه كانت لأجل أن يرفع الإنسان من عبادة الشخص المحدد المتغير الفاني إلى ما وراء ذلك مما له الدوام والاستقرار . وإذا كان له الدوام والاستقرار كان حتما له الكمال لأنه يعلو عندئذ الاحداث وتقلباتها ، أو لأنه لا يخضع لها كما يخضع المتغير . والخضوع في ذاته نقص ، والاستقلال والاستغناء في ذاته كمال .

وإذا كان المعبود كاملاً ، وإذا كان دائم الكمال ، شرف الانسان بالخضوع له ، لأنه أعلى قيمة منه . وبقيت كذلك وجهته في الحياة ثابتة لا تتبدل فيها وهي وجهة الكمال المطلق

وكفاح الإسلام ضد عبادة الأشخاص او الذوات المشخصة قصد به إذاً إشعار الأنسان بكرامته وبقيمة ذاتية له لأنه جعل خضوعه لحسب لمميز عنه وعما في الكون كله ، كما قصد به توجيهه في حياته إلى هدف باق هو الكمال الذي لا يتغير أو الخير الذي لا يتبدل . والصراع إذاً بين الأسلام والوثنية أيضا صراع من أجل تقديس المبادىء دون الاشخاص . إذ ليست المبادىء إلا المعاني العامة ، ولعمومها هي باقية في كل مكان و زمان لا تخضع للتغير والتقلب .

* * *

وفي طي مكافحة الإسلام للوثنية مكافحته انقياد الفرد لفرد آخر لذاته دون رعاية لما يحمله من مبادىء أو فكر مثالية . وكان انقياد المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم لا لأنه محمد بن عبد الله ، بل لأنه رسول الله ، أي لما يحمله من رسالة ربه وليس لذاته كفرد من الافراد « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » . وكذلك كان انقياد المؤمنين حقا لرسلهم . ولهذا لم يمكن من

المنطق فى شىء أن يدعو الرسول لعبادة نفسه من دون الله أو مع الله ، لأن الدعاء لعبادة نفسه على العموم يتناقض مع دعوى الرسالة التى تنطوى على أن قيمة الرسول فى صلته بالله . « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »

وما عاب الإسلام على أهل الكتاب من المسيحيين تأليه عيسى وإشراكهم له مع الله فى معنى الألوهية إلا لأن فى تأليه عيسى معنى التبعية للشخص دون المبدإ . والذى دعاهم إليه ليس إلا التجاوز بالعبادة من الشخص إلى ما هو أسمى منه وهو الباقى الذى لا يتغير ولا يفنى . وبهذا إذا استمعوا لدعائه ، التقوا مع المسلمين فى هدف واحد . « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . » ، « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد ... » .

وما الإستمرار الذى طلبه القرآن من المسلمين فى الدعوى إلى الخير بقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر... » إلا وسيلة المحافظة على فصل الإنسانية بين المبدأ والشخص كما طلب الإسلام ، والإخشية من أن يؤول الأمر ، إذا أهمل المسلمون إلهاب شعور الفصل هذا عند الإنسان ، إلى الوثنية فى صورة ما ، وهى الإنقياد للشخص لأمر آخر غير المعانى العامة الثابتة التى مرد جميعها إلى الخير المطلق والكمال الدائم . ومن السهل ، إذا لم تستمر الدعوة لما وضعه الإسلام من هدف ، أن ينجذب الإنسان إلى الإنقياد للشخص لأن التشخص ناحية مادية ، والمادة أرجح كفة مما وراءها فى نظرة الإنسان الأولى .

والأديان السماوية كلها ، وفى مقدمتها الإسلام ، متفقة على توجيه الإنسان نحو المبدإ دون الشخص ، أو متفقة على أن تكون عبادة الإنسان لما هو وراء المادة ، وما وراءها هو غير المتغير . ولعدم تغيره كان وحده إذا قورن بالمادة كاملا . وتعدد الأديان لا يقتضى اختلافها فى هذا التوجيه ، بل لأن الإنسانية لم تحرص فى فترات متفاوتة عليه . ولذا كان لا بد من تجديد ايقاظ هذا التوجيه عندها . والدين اللاحق إذاً هو بمثابة تجديد لدعوة الدين السابق . وإن رجد اختلاف جوهرى بينها فمنشؤه إذاً رجال الدين أنفسهم لأنهم بإصرارهم على أفهامهم فى الدين وقد تكون بعيدة عن هدفه العام وبمرور الزمن على هذا الإصرار يختلط ما أصروا عليه بما الدين فى الأصل إذا نقل عنه . وتحريف الكلام عن مواضعه الذى ينسب إلى رجال أى دين من الأديان منه هذه الأفهام البعيدة التى أصروا على أنها لدين . « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ... » .

* * *

وليس الإلمام بمعارف الإسلام أو أداء رسومه الظاهرة هو عنوان سيطرة الاسلام على الفرد أو الجماعة أو على نسبة الفرد أو الجماعة إليه ، بل عنوان ذلك وحده هو الفصل على نحو ما ذكرنا بين الانقياد إلى الشخص أو إلى المبدإ . كما أن هذا الفصل نفسه عنوان رقى الفرد أو الجماعة لانه ينطوى على شعور الفرد أو الجماعة بالكرامة أو بالقيمة الذاتية وعلى ما يسمى بالسمو الروحى أو النفسى ، كما أن العكس وهو رواج الانقياد للشخص أكثر من الانقياد للمبدإ دليل على عدم سيطرة الدين وبالتالى على عدم تضوج الفرد أو الجماعة .

ويخطىء إذاً من يفرق بين الدين وضروب الثقافات الإنسانية الأخرى فى توجيه الانسان ، فيجعل الدين منزلة ثانية ، لأن هذه الضروب من الثقافة إن كانت موصلة لرقى الفرد والجماعة موصلة لتهذيب الإنسان وإشعاره بكرامته وموصلة لتحقيق معنى الصالح العام فى الجماعة التقت مع الدين فى هذا الغرض وامتاز الدين عنها بتجرده المطلق عن التحيز لجماعة إنسانية دون جماعة أخرى . وعلامة الصالح العام فى الجماعة تقدير المبادىء العامة التى لا تخضع للتغير والتى تتسلسل جميعها فى النهاية إلى مبدإ أعلى للوجود كله وهو الله .

ولأن الدين ، وبالأخص الإسلام ، له هذه المنزلة لا تكون

مغالين إذا حكمنا بأن خلو التوجيه منه فى الجماعة نقص فى التوجيه نفسه ، لأن الثقافة الإنسانية التى تستخدم فى التوجيه عندئذ مهما أكدت معنى المبادىء والمثل العليا فإضافتها للانسان توحى تشككا فى أبدية ما فيها من مبادىء ومثل ، أو يؤول أمر نسبتها للانسان إلى تقديس الإنسان دون اعتبار حمله هذه المبادىء .

* * *

ولا نبعد عن الصواب كثيراً إذا حكمنا على بعض علماء الدين بأنهم لم يفهموا الاسلام إذا جعلوا من قوله تعالى : « وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » ثلاثة أنواع من الطاعة ، لأن الهدف الأخير للاسلام هو طاعة الله وحده ممثلا فى الرسول باعتبار كونه حاملا لرسالته ، وفى أولى الأمر باعتبار كونهم قوامين على تنفيذ ما ورد فى هذه الرسالة فى الجماعة الإنسانية . وفى هذا قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » والحديث الشريف : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله » .

ولا نبعد أيضاً عن الصواب كثيراً إذا ذكرنا أن الوثنية التى حاربها ويحاربها الاسلام ليست هى وثنية العرب التى كانت قائمة على تقديس الاصنام وبعض الكواكب فحسب ، بل هى وثنية الإنسانية على العموم ، وهى تقديس الشخص دون رعاية للمبدأ والمثال . وهى لا تزول من هذا الوجود ما دام للانسان ناحية مادية وأخرى روحية ، وما دام للوجود كله أيضاً جانبان : جانب ظاهرى هو الجانب المادى ، وآخر مستتر وهو الجانب المثالى أو المعنوى ، وما دام انجذاب الإنسان إلى الجانب المادى بحكم ظهوره أكثر من انجذابه إلى الجانب الآخر . ولسهولة انجذابه إلى الجانب المادى كان هو فى حاجة على الدوام فى الكفاح ضد هذه الوثنية أو كانت الإنسانية كلها — إذا ابتغت الرقى — فى حاجة أبداً إلى دين سماوى هو الإسلام . لأن الإسلام آخر مظهر للأديان السماوية على طبيعتها صانه الرشد الإنسانى فى التدوين والرواية عن أن يختلط ببعض الأفهام المنحرفة فيه . فكلمه لم يحرف عن مواضعه كما حرفت الديانات السابقة عليه . إذ الإنسانية وقتئذ أى وقت تحريف هذه الديانات لم تملك الشجاعة الكافية فى كتابة التاريخ حراً دون التأثر برأى رجال الدين ودون رعاية لسلطانهم ، فكان الدين المؤرخ هو رأى رجاله وكان رأى رجاله هو التعبير عن الدين .

وإذا كانت الإنسانية منذ القدم فى حاجة إلى معونة الدين فى مكافحة الوثنية ، وكانت حاجتها هذه قائمة على طبع فيها وهو ميلها النفسى إلى الصفحة الظاهرة من الوجود وهى الصفحة المادية ، فالدين إذاً ليس لعهد دون آخر . إنما الذى يخلع عليه البلى أو يجعله للماضى فقط هو فهم رجاله وعمل الدعاة باسمه ، أو هو غرور الإنسان بالإنسان . إذ منذ قيام العهد الإنسانى وهو منذ عصر النهضة الأوربية أخذ الإنسان يؤمن بنفسه ثم بالغ فى هذا الايمان حتى طغى أو حال دون إيمان له نتيجة عملية لشىء آخر فى هذا الكون . ومنذ قيام هذا العهد أيضاً كان عمل رجال الدين بعيداً عن مقصد الدين . وبذا كانت فجوة بين الاتجاه الجديد فى الحياة الإنسانية وبين تمثيل الدين فى رجاله : الاتجاه الجديد فى الحياة الإنسانية يؤمن بالقيمة الذاتية للانسان ، ويؤمن بالمساواة بين الأفراد لا عابد ولا معبود بينها ، ورجال الدين بعملهم يصورون الدين منحرفا عن هذا الاتجاه .

* * *

ونفع الجماعة الإنسانية الحاضرة إذا بالدين متوقف إلى حد كبير على حاجة رجال الدين أنفسهم إلى الدين فى مكافحة هذا الانحراف ؛ متوقف على أن تكون الدعوة باسم الدين إلى الله وحده لا لإنسان آخر غيره مهما عظم ومهما كان له من سلطان. وهكذا أرباب الدعوة قد يحتاجون أنفسهم إلى الدعوة ، ولكن على يد من لا ينسبون أنفسهم إليها .

محمد البهى

صديق القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

تاريخ الأدب العربى: للأستاذ أحمد حسن الزيات

آلام فرتر : للشاعر الفيلسوف « جوته »

رفائيل : للشاعر الحب والجمال « لامرتين »

اطلبها من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة